

المنهج التربوي الإسلامي رؤية متكاملة في صناعة الإنسان وتربية المجتمع

الشيخ حسن أحمد الهادي⁽¹⁾

مُستخلص:

تساهم التربية في صناعة شخصية الإنسان بحسب استعداداته وقابليّاته الخاصّة في جميع جوانبها (البدنيّة، والقلبيّة، والعقليّة)، وقد شعر الإنسان منذ اللحظة الأولى لوجوده في هذا الكون بالحاجة إلى التربية؛ ولهذا توزّعت ميادين التعليم وميادين التربية بين المؤسّسات التربويّة، والأسرة، والمجتمع. وإنّ أهم المبادئ التي تصوغ رؤية الإنسان، وتساهم في بناء هويته الشخصية والاجتماعيّة، وتحدّد الاتجاه التربويّ الإسلاميّ العام، هي مبدأ "التوحيد" و"الاستخلاف" و"التزكية" والعبودية لله و"الوسطية". وإنّ أهم القيم التي ركّز عليها الإسلام هي: الايمان، كرامة الإنسان، العدل. وتعتبر فلسفة التربية القاعدة النظرية الأولى لاشتقاق مواصفات الإنسان المطلوب بالتربية المنهجية. وللمنهج التربويّ في الرؤية الإسلامية العديد من المميّزات، من أهمّها، ربانيّة المنهج التربويّ وشموليّته، وواقعيّة المنهج وتوازنه، وقواعده الكليّة الثابتة في أصولها والمرنة في تفاصيلها وتطبيقاتها.

(1) أستاذ حوزوي، وباحث في الفكر الإسلاميّ، لبنان.

وتلعب الأهداف دوراً أساسياً في بناء المناهج التعليميّة، فالهدف هو البرزخ بين الدافع والنتيجة، ولا شكّ بأنّ لكلّ مجتمع فلسفة اجتماعيّة معيّنة تنتج من قيمه ومثله، وهي بالتالي تعتبر مصدر الأهداف التربويّة لذلك المجتمع، ويمكن اختصار الأهداف التربويّة الوسيطة من وجهة نظر الإسلام ضمن أربع مجموعات؛ فمنها ما يكون الله سبحانه وتعالى هو محور الاهتمام فيها، ومنها ما يكون الفرد نفسه هو محور الاهتمام فيها، ومنها ما يكون الآخرون هم محور الاهتمام فيها، ومنها التي تكون الطبيعة هي محور الاهتمام فيها.

كلمات مفتاحية:

المنهج، التربية، الفلسفة التربويّة، الحوزة العلميّة، الأهداف.

مقدمة:

إنَّ التربية حاجة لكلِّ إنسان بما يحمل من معانٍ إنسانيَّة، وحاجة لبناء الإنسان، وإرساء دعائم الحضارات، وتقويم انحراف المجتمعات، ولقد شعر الإنسان منذ اللحظة الأولى لوجوده في هذا الكون بالحاجة إلى التربية، عندما برزت نزعة الشرِّ مع ابن آدم، لتتقسم البشريَّة فيما بعد إلى مجموعتين: مجموعة تمثل فكر قابيل القاتل الذي يختزن كلَّ معالم الشر والفساد، ومجموعة تمثل فكر هابيل الذي يختزن كلَّ معالم الخير والصلاح، فهذا الإنسان الذي تتحكَّم فيه النزعات النفسيَّة والصراعات القبائليَّة من أجل شيء واحد ألا وهو إثبات وجوده وديمومة "الأنا" عنده، حتَّى ولو كان ذلك على حساب آلام الآخرين. فهو رغم وجود كلِّ هذه الصراعات الداخليَّة والخارجيَّة التي أفرزتها الأنا (النفوس) قادر على صنع الحضارات البشريَّة المتعدِّدة، فنراه يسعى في حركته إلى الكمال والسعادة التي فطر على طلب تحصيلها. ومن هنا هياً الله تعالى للإنسان أسباب حصول السعادة والتي تتمثل ب:

1. الأسباب الباطنيَّة: بأن زوّده بالحواس، والعقل، والغرائز، والاستعدادات التي تمكّنه من الوصول إلى هدفه، ليستطيع من خلال هذه الطاقة أن يفتح على الحياة، فيعرف حاجاته، ويدرك مشاكله، ويفهم محيطه.

2. الأسباب الظاهريَّة: بأن أرسل الله تعالى الأنبياء ﷺ ليزوّده بأسمى التعاليم، من خلال نشر مفاهيم المحبّة والرأفة، والمعرفة، والعدالة بين الناس، مستخدمين في ذلك أنجح وأعظم الأساليب التربويَّة، وهذا ما اختزنه الآية الكريمة من خلال مفهوم التزكية في القرآن الكريم. قال الله تعالى ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾⁽¹⁾.

(1) سورة آل عمران، الآية 164.

وهنا تبرز أهمية المناهج التربويّة في تربية الإنسان وبناء المجتمع، بلا فرق بين ميادين التعليم وميادين التربية المختلفة في المؤسسات التربويّة والمجتمع والأسرة، وما لهذه المناهج من أصالة حاكمة على كل البرامج في المؤسسات التربويّة، والميادين الاجتماعيّة والأسرية كافة، بل هي ضرورة من ضرورات التربية والبناء الاجتماعيّ تحافظ بها الإنسانية على بقائها وتطورها، وهي محكومة بالفلسفات التربويّة والاجتماعيّة، وبمظاهر الحياة العديدة للجماعة التي تعيش فيها، وبالتراث الثقافي الذي خلّفته الأجيال في أمة من الأمم...، ومهمّتها تنمية الفرد في إطار قدراته واستعداداته معرفةً وتفكيراً وسلوكاً، ولهذا اعتبرت المناهج التربويّة عاملاً من أقوى العوامل على تحقيق آمال الشعوب ورفي المجتمعات بتنمية قدرات أفرادها وتطويرها وتوجيهها⁽¹⁾.

مفهوم المنهج التربويّ:

المنهج من مادة "نهج"، والنهج في اللغة يعني: "الطريق الواضح، ونهجت الطريق إذا أبنته وأوضحته؛ يُقال اعلم على ما نهجته لك، ونهجت الطريق إذا سلكته"⁽²⁾. والمنهج والمنهاج، وجمعه مناهج، معناه لغة: الطريق الواضح⁽³⁾، ونهج لي الأمر: أوضحه⁽⁴⁾. واستخدم في القرآن الكريم بهذا المعنى، قال تعالى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾⁽⁵⁾. وأمّا في الاصطلاح، فالمنهج هو: "الطريق المؤدّي إلى الكشف عن الحقيقة في العلوم بواسطة طائفة من القواعد العامة، تهيمن على سير العقل، وتحدّد

- (1) قورة، حسين سليمان: الأصول التربويّة في بناء المناهج، ط7، مصر، دار المعارف، 1982م، ص23-24.
- (2) الجوهرى، إسماعيل بن حماد: الصحاح، تحقيق أحمد عبد الغفور العطار، ط4، بيروت، دار العلم للملايين، 1407هـ ج1، ص118.
- (3) الفراهيدي، الخليل بن أحمد: كتاب العين، تحقيق: مهدى المخزومي وإبراهيم السامرائي، ط2، إيران، دار الهجرة، 1409هـ ج3، ص392.
- (4) ابن فارس، أحمد: معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام هارون، لا ط، قم، مكتب الإعلام الإسلاميّ، 1404هـ ج5، ص361.
- (5) سورة المائدة، الآية 48.

عملياته حتى يصل إلى نتيجة معلومة"⁽¹⁾. وبعبارة أخرى: هو مجموعة القواعد والأساليب والأدوات العامّة التي تشكّل خارطة الطريق الواجب على الباحث الالتزام بها والسير عليها في دراسته للموضوع ومعالجته للمشكلة البحثية من أجل التوصل إلى النتائج والأجوبة المطلوبة، وإيجاد الحلول المناسبة لها.

وأما التربية فقد طرّح في معناها ومصدريّتها في اللغة العربية عدّة احتمالات:

الأول: أن تكون مصدرًا من: رَبَا الشَّيْءُ، بمعنى: زاد ونما⁽²⁾ وارتفع وعلّا⁽³⁾.

والثاني: من رَبَّ يَرْبُهُ رَبًّا: مَلَكَه⁽⁴⁾.

والثالث: رَبَوْتُ فِي بَنِي فلان أَرْبُو نَشَأْتُ فِيهِمْ⁽⁵⁾.

والتربية اصطلاحًا هي التصدي العلمي والتربوي، في صناعة⁽⁶⁾ شخصية الإنسان بحسب استعداداته وقابلياته الخاصة في جميع جوانبها (البدنية، والقلبية، والعقلية)، وبمختلف الأبعاد الحياتية (الاجتماعية، الاقتصادية، السياسية،...); بهدف إيصاله إلى كماله (الحقيقي أو الإضافي) المتوجّه إليه بشكلٍ تدريجيّ، وبنحو مستدام، وباعتماد مجموعة من الأصول والأساليب الجيدة والحسنة المستخرجة من المصادر الإسلامية⁽⁷⁾.

(1) بدوي، عبد الرحمن: مناهج البحث العلمي، ط3، الكويت، وكالة المطبوعات، 1977م، ص 5.
(2) يراجع: الفراهيدي، أحمد بن خليل، كتاب العين، م.س، ج8، ص283؛ ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، لا ط، إيران، نشر أدب الحوزة، 1405هـ ج1، ص400.
(3) ابن فارس، أحمد بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، م.س، ج2، ص483.
(4) الفراهيدي: كتاب العين، م.س، ج8، ص256. ولسان العرب، م.س، ج5، ص94.
(5) لسان العرب، م.س، ج14، ص306.

(6) صناعة: مأخوذة من قوله تعالى: ﴿وَلْيُصَنِّعْ عَلَيَّ عَيْتِي﴾ (سورة طه، الآية 39).
(7) يراجع: مركز المعارف للتأليف والتحقيق: المنهج الجديد في تربية الطفل، ط1، بيروت، إصدار جمعية المعارف الإسلامية، 2016م، ص35.

الفلسفة التربوية وصناعة الإنسان في الرؤية الإسلامية:

فلسفة التربية تعني مجموعة من المبادئ، والمفاهيم، والقيم، والميول التي تشكل معاً إطاراً موجهاً لسلوك الفرد، أو الأسرة، أو المؤسسة، في العمل، أو التربية، أو الحياة⁽¹⁾. وتعتبر فلسفة التربية القاعدة النظرية الأولى لاشتقاق مواصفات الإنسان المطلوب بالتربية المنهجية، ومن ثم بناء الأهداف العامة والخاصة التربوية. وقد دعى الإسلام إلى تربية "الإنسان الصالح"، ومن هنا ركز على السلوك الهادف وعلى مجموعة من المبادئ والأسس والقيم التي يلزم وعيها في حياة المسلم للبلوغ نحو ذلك الهدف المنشود. كما أثبت الفقهاء والعلماء التزامهم بتلك الأسس والاعتبارات في سيرتهم العملية، وبحثوا عنها في نتائجهم الفكرية والعلمية. ولعل أهم تلك المبادئ التي تصوغ رؤية الإنسان المؤمن والمسؤول نحو الحياة وقضاياها، وتساهم في بناء هويته الشخصية والاجتماعية، وتحدد الاتجاه التربوي الإسلامي العام، هي مبدأ "التوحيد" و"الاستخلاف" و"التركيزية" و"العبودية لله" و"الوسطية". كما أنّ أهمّ القيم التي ركّز عليها الإسلام، وتساهم في العملية التربوية - بشكل خاص - هي: الإيمان، كرامة الإنسان، العدل. وفيما يلي عرض موجز لهذه المبادئ والقيم، ودورها في صياغة الفلسفة التربوية الإسلامية بشكل عام، والفلسفة التربوية للحوزة العلمية بشكل خاص:

1- المبادئ الخمسة

1-1 - مبدأ التوحيد: يشكّل مبدأ التوحيد الإطار العام والرئيس لفكر المسلم، والمطلوب منه أن تكون حركته في مجالات مختلفة منسجمة مع هذا الإطار العام، فلا يخطو خطوة ولا يقدم على فعل إلا وهو مقتنع بانسجامه مع قناعاته التوحيدية.

(1) راجع: حمدان، محمد زياد: أساسيات المنهج الدراسي، لا ط، لا مكان، دار التربية الحديثة، لا ت، ص 6.

التصوّر التوحيدي يعني فهم العالم على أنه خُلق نتيجة لمشيئته، وأن نظام الوجود يقوم على أساس الخير والرحمة، وعلى أساس البلوغ بالموجودات إلى كمالها، وحسب هذا التصور فإنّ العالم يسير وفق مجموعة نظم لا تتخلف عن "السنن الإلهية"، ووفق التصوّر التوحيدي يتمتع "الإنسان" بين المخلوقات بموقع متميّز وله كرامة خاصة، كما أن له رسالة خاصة، حيث إن هذا التصور يمنح الحياة روحًا وهدفًا ومعنى؛ لأنه يدفع الإنسان تجاه مسيرة تكاملية مستمرة لا تعرف الوقوف عند مرحلة معيّنة⁽¹⁾.

فالتربية وفلسفتها في احتكاك دائم ومستمر مع النزعة التوحيدية للإنسان المؤمن، ولا يمكن تصوّر التربية من دون هذا الشعور والإحساس لدى المسلم. "فالفارق الأساس الذي يميزنا عن بقية أصحاب الادعاءات في العالم يكمن في وجود هذا الهدف المقدس، فنحن نريد السعي في سبيل الله، ولأجل دين الله، ولنيل رضاه، ولإعلاء كلمته. ويجب أن يكون هذا هدفنا منذ أن نشرع بالدراسة إلى حين قيامنا بعملية التبليغ، أو التدريس، أو التصدي لمسؤولية ما في الحوزة أو خارجها"⁽²⁾.

من هنا، فإن الأساس الأول لفلسفة التربية الإسلاميّة هو البعد التوحيدي لهذه التربية الذي يدعو إلى بناء الشخصية الإنسانية المنفتحة على الله -تعالى- في قضايا الحياة كلها.

2-1 - الاستخلاف: المبدأ الثاني الذي تعتمد عليه فلسفة التربية في الفكر الإسلاميّ والحوزة العلميّة، هي مبدأ "الاستخلاف" الذي يرمي إلى اعتبار الإنسان خليفة لله -تعالى- في الأرض؛ وذلك بهدف تحقيق غايات أرادها الله للإنسان؛ أي "إعمار الأرض" و"بناء الذات". قال -تعالى-:

(1) راجع: المطهري، مرتضى: المفهوم التوحيدي للعالم، لا ط، بيروت، دار التيار الجديد، 1985م، ص 15-14.

(2) من كلام للسيد علي الخامنئي، بمناسبة بدء العام الدراسي 8 جمادي الثانية، طهران.

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾⁽¹⁾. وقوله -تعالى-: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَأَسْتَخْرَكُم فِيهَا﴾⁽²⁾.

فبعدما يذعن المسلم بأنه "لا سيّد ولا مالك ولا إله للكون والحياة إلاّ الله سبحانه وتعالى" انطلاقاً من مبدأ التوحيد-الذي سبق الحديث عنه-، فإنّه يرى: "أنّ دور الإنسان في ممارسة حياته إنّما هو دور الاستخلاف والاستئمان؛ وأيّ علاقة تنشأ بين الإنسان والطبيعة، فهي في جوهرها علاقة أمين بأمانة استؤمن عليها. وأيّ علاقة تنشأ بين الإنسان وأخيه الإنسان مهما كان المركز الاجتماعيّ لهذا أو لذاك، فهي علاقة استخلاف وتفاعل بقدر ما يكون هذا الإنسان أو ذاك مؤدّباً لواجبه بهذه الخلافة، وليس علاقة سيادة، أو ألوهية، أو مالكية"⁽³⁾.

وهذه النظرة إلى الإنسان وإلى العلاقات التي ينبغي أن تسود بين الناس ترسم صورة مختلفة لهوية شخصيّة إنسانية، وتشكّل رافداً مهماً لعملية بناء الإنسان الداخلي وتربيته الاجتماعيّة. كما يتطلّب ذلك من المعنيين بالتربية والتعليم -من منظور إسلامي- أن يجعلوا الاستخلاف هدفاً تربوياً، ويشتقوا المواصفات المطلوبة للمُتربّي من صفات "المُسْتَخْلَفِ عَنْهُ". وهذا ما يطرح -بوضوح- أهمية الرجوع إلى القرآن الكريم لاقتباس تلك المواصفات من صفات الله -تعالى-، وأن يتّجهوا في العملية التربويّة إلى عملية التّشبه المطلوب بالمقاييس البشرية.

3-1 - التزكية: إن المبدأ الثالث من المبادئ التي تبلور الفلسفة الإسلاميّة للتربية وتشكّل الدعامة الأساسية للعمل التربويّ هو مبدأ "التزكية"

(1) سورة البقرة، الآية 30.

(2) سورة هود، الآية 61.

(3) الصدر، محمد باقر: المدرسة القرآنية، لاط، طهران، دار الكتاب الإيراني، 1984م، ص 116.

الذي يعني أنه لا يمكن معالجة التناقضات الاجتماعية جذرياً (الاقتصادية والسياسية والثقافية و...) إلا من خلال معالجة التناقض الداخلي للإنسان، ذلك التناقض الذي يرتدُّ إلى خلق الإنسان من "التراب والروح"؛ حيث إن الأول يدعو الإنسان إلى التمسك بالأرض، والثاني يدعوه إلى العروج نحو المثل الأعلى. "إنَّ هذا التناقض الذي يعيشه الإنسان في الداخل هو النبع لكل التناقضات الاجتماعية في الحياة، فأبى حلَّ يقتصر على حلَّ التناقضات الخارجية لا يستطيع أن يعالج المشكلة من الأساس؛ حيث إنَّ المشاكل الخارجية هي إفرزات للتناقض الداخلي في الإنسان"⁽¹⁾. ويعالج الإسلام هذه المشكلة من خلال الاهتمام بالبعدين معاً؛ إذ يضمُّ الدعوة إلى الجهاد الأصغر بالدعوة إلى الجهاد الأكبر، ويعتبر الجهاد الأكبر القاعدة والركيزة بالنسبة إلى الجهاد الأصغر، ومن هنا جاء التركيز عليه في القرآن الكريم في قوله -تعالى:- ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾⁽²⁾.

من هنا، فإن أحد المعايير الأساسية -من منظور إسلامي- هو الجانب الروحي والسلوكي، فبقدر ما يتحرَّر الإنسان من تأثير العوامل المحيطة به، ويعيش الخلو والصفاء النفسي، ينجح في المهام الموكَّلة إليه ويسير نحو الكمال الإنساني المطلوب، وهذا ما لا يمكن أن يتمَّ إلا من خلال العملية التزكوية المستمرة المقرونة بالمراجعة والمراقبة المستمرة للنفس.

4-1 - العبودية: إنَّ الهدف من خلق الإنسان -حسب القرآن الكريم- هو عبادة الله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾⁽³⁾ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُونَ⁽³⁾. ولكن العبادة بمفهومها القرآني الواسع

(1) انظر: الصدر، المدرسة القرآنية، م.س، ص 116

(2) سورة الجمعة، الآية 2.

(3) سورة الذاريات، الآية 56-57.

ليست صلاة وصياماً واعتكافاً في المساجد وانزواءً عن الحياة، وإنما العبادة في مفهومها الواسع تشمل جميع الأعمال التي يقصد بها رضى الله، سواء أكان كسباً أو بيعاً أو تجارة، أو صلاة أو صياماً، أو تعليمًا وتعلّمًا، أو غير ذلك.

إنّ "العبودية" بمفهومها الإسلاميّ هو التحرّر من الأصنام التي تسلب حرية الإنسان، سواء أكانت تلك الأصنام أمة، أو فئة، أو فردًا، أو الأهواء والشهوات الإنسانية. ففي حين أنّ "الحرية في الحضارات الغربية تبدأ من التحرّر لتنتهي إلى ألوان من العبودية والأغلال، فإنّ الحرية الرحبية في الإسلام على العكس، فإنّها تبدأ من العبودية المخلصة لله تعالى، لتنتهي إلى التحرّر من كل أشكال العبودية المهيمنة"⁽¹⁾. ﴿تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ﴾⁽²⁾. وإن العبودية بهذا المفهوم تضمن أخلاقيّة الأفكار وإنسانيّتها والمشاريع والسلوك والممارسة في آنٍ واحد.

وعلى صعيد التعليم والتعلّم: "عندما يدخل الطالب للدراسة [في الحوزة العلميّة]، فإنّه -كما غيره- لا يتوقّع أن يتخرّج منها عالمًا فقط، بل يتوقّع أن تنمو بداخله وبشكل متكامل المعارف الدينية، والتعبّد بالأحكام الإسلاميّة، والأخلاق والروحية المتعالية؛ بحيث يخرج من الحوزة عالمًا واعيًا متعبّدًا ومتمقيّدًا بالشرع"⁽³⁾. وإنّ روح التعبّد في داخل المؤمن تجسيد عملي لمبدأ "التوحيد"، وهو المفهوم المركزي في التصرّ الإسلاميّ -بشكل خاص- وفي التصرّ الديني -بشكل عام-، فتجريد عمليّة التربية من هذا البعد يعني تجريدها عن جوهرها الديني والروحي.

1-5 - الوسطية: من أبرز الخصائص التي ركّز عليها الإسلام، ويعتمد عليها

(1) الصدر، محمد باقر: الحرية في القرآن، بحث منشور ضمن "بحوث إسلامية"، ط3، بيروت، دار الزهراء، 1403هـ-1983م.

(2) سورة آل عمران، الآية 64.

(3) من كلام للسيد الخامنّي ألقى في 1366/8/17هـ.ش.

الفكر الإسلامي هو مبدأ الوسطية في كل مجالات الحياة، وفي أمور الدين والدنيا. يقول -تعالى-: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾⁽¹⁾. و﴿وَأَبْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾⁽²⁾. ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾⁽³⁾، وغيرها من الآيات والأحاديث.

وتبرز الوسطية في الجانب النفسي والداخلي من خلال بناء شخصية متوازنة ومعتدلة قادرة على حل جميع التناقضات الداخلية في نفس الإنسان، وتوصله إلى درجة الاعتدال التي تلازم كمال الإنسانية، كما أنّ الوسطية في الجانب الاجتماعي تعني الابتعاد عن الإفراط والتفريط في الاتجاه والسلوك، وبناء علاقات إيجابية مع الآخرين ملؤها التواصل والتوادد والإحسان في ظلّ أجواءٍ تراعى فيها حقوق الجميع وتُصان كراماتهم.

إن هذه المبادئ الخمسة تجسّد أهمّ الأسس التي تشكّل إطاراً موجّهاً لسلوك المسلم الملتزم بالقيم الإيمانية والروحية، وتشكّل البنى التحتية للفلسفة التربويّة في الحوزات العلميّة. فلا يمكن من هذا المنطلق الحديث عن تربية منفصلة عن مبدأ من هذه المبادئ، حيث إن صياغة الإنسان المطلوب -من منظور إسلامي- تتصل بتلك المبادئ، كما أنّ الأهداف العامة والأهداف الخاصة التربويّة تُشتقّ من تلك المبادئ والاعتبارات.

2. الأصول الإيمانية والقيم الإسلاميّة:

لقد ركّز الإسلام في الوصول إلى الأهداف العالية التي يرمي إلى تحقيقها -بجنب المبادئ التي سبق الحديث عنها- على جملة من المفاهيم والاعتبارات القيميّة، وتعتبر هذه الاعتبارات والقيم الفروق الجوهرية بين

(1) سورة البقرة، الآية 143.

(2) سورة القصص، الآية 77.

(3) سورة الفرقان، الآية 67.

الإسلام وباقي الأنظمة التربويّة الوضعية. ونستعرض -فيما يلي- أهم تلك الأصول والقيم وهي: الإيمان، والكرامة الإنسانية، والعدل.

1-2 - الإيمان: يعتبر الإيمان من أهمّ القيم الإنسانية -من وجهة نظر الإسلام-، وهي "اللبنة الأساسيّة في بناء نظام الإسلام، وهي التي تمد باقي أجزائه بالحياة وتحدد اتجاهاتها ومعالمها... وهي تصوّر الوجود: وجود الله الخالق، ووجود الكون والإنسان، والصلة بين الله والكون والإنسان، وكذلك الحياة وما وراءها من حياة أخرى، أو المصير والجزاء والنبوة... والعبارة تشمل كل ما شرع الإسلام من طرائق لإذكاء عقيدته ونقلها إلى حيّز الأعمال الحسيّة والمشاعر القلبية؛ لإشعار الإنسان بموقعه من الله..."⁽¹⁾. وعليه فإن الإيمان لا ينفصل عن الواقع العملي للإنسان، فعلى الرغم من أنّه عمل قلبي، حيث فرض الله على القلب الإيمان والإقرار والمعرفة، -وهذا القلب هو المعنيّ بقوله تعالى كما في الحديث القدسي: "ما وسعني أرضي ولا سمائي، ووسعني قلبُ عبدي المؤمن"⁽²⁾- إلا أنّ الإيمان عملٌ جوارحيّ أيضاً (إيمان السمع والبصر وباقي الجوارح): "أدنى الكفر أن يسمع الرجل عن أخيه الكلمة فيحفظها عليه يريد أن يفضحه بها"⁽³⁾. "لك النظرة الأولى، وعليك النظرة الثانية"⁽⁴⁾. وبتعبير آخر "الإيمان" هو "أن تعي قلوبكم وتصدّق تلك الأمور التي أدركتها عقولكم. وهذا يحتاج إلى المجاهدة حتى تشعر قلوبكم أنّ العالم كله محضر لله"⁽⁵⁾: ﴿كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾⁽⁶⁾.

(1) المبارك، محمد: نظام الإسلام: العقيدة والعبادة، لا ط، دمشق، لا ناشر، 1968، ص 28.

(2) الأنصاري، التبريزي: اللعة البيضاء في شرح خطبة الزهراء عليها السلام، لا ط، قم، مؤسسة الهادي، 1418هـ ص 139.

(3) الحر العاملي: وسائل الشيعة، ط2، قم، مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، 1414هـ ج17، ص 211.

(4) الجصاص، أبو بكر: أحكام القرآن، لا ط، بيروت، دار الكتب العلميّة، 1415هـ ج3، ص 407.

(5) الخميني، روح الله: منهجية الثورة الإسلاميّة (مقتطفات من أفكار وآراء الإمام الخميني)، لا ط، طهران، مؤسسة تنظيم ونشر تراث الامام الخميني، 1996م، ص 224.

(6) سورة المجادلة، الآية 22.

من هنا، فإن الإطار العام الذي يقرره الإسلام للعمل هو: "الإيمان بالله واليوم الآخر، والدوافع هي: العواطف والميول الخيرة التي تنسجم مع هذا الإطار العام وتندمج معه في وحدة روحية يتكوّن منها الإنسان المسلم"⁽¹⁾. والعمل الصالح سواء أكان تعليمًا أو تربية أو أي عمل آخر لا بدّ أن ينبثق عن هذه العواطف والميول ضمن الإطار الإيماني العام.

2-2 - الكرامة الإنسانية: إن "الإنسان" -من منظور إسلامي- هو أشرف مخلوق لله-تعالى- على الإطلاق، لقد خلقه في أحسن تقويم، ومنحه الكرامة والمنزلة، وفضّله على باقي أفراد مخلوقاته: قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾⁽²⁾.

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾⁽³⁾. هذه الكرامة والفضيلة الذاتية للإنسان الضاربة في بعده الإلهي: ﴿ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ﴾⁽⁴⁾ تخوّله أن يكون: خليفة الله في الأرض⁽⁵⁾، ومختارًا ومستقلًا في قراراته وأمينًا لله على الأرض وعلى خيراتها⁽⁶⁾، وصاحب ضمير أخلاقي حي⁽⁷⁾، والسبب في خلق ما في الأرض من نعم وخيرات⁽⁸⁾، والقادر على التعليم والتعلم⁽⁹⁾.

هذه هي حالة الإنسان بالخلق والتدبير، إلا أن الإنسان القادر على التغيير -سلبًا وإيجابًا- يقرّر مستقبله بنفسه، ويستطيع أن يبلغ الكمال

(1) الصدر، محمد باقر: العمل الصالح في القرآن، ضمن بحوث إسلامية، ط3، بيروت، دار الزهراء للطباعة

والنشر، 1983م، ص 37.

(2) سورة التين، الآية 4.

(3) سورة الإسراء، الآية 70.

(4) سورة السجدة، الآية 9.

(5) سورة البقرة، الآية 30.

(6) سورة الأحزاب، الآية 72.

(7) سورة الشمس، الآية 7-8.

(8) سورة البقرة، الآية 29.

(9) سورة البقرة، الآية 31.

اللائق به ويختار سبيل التطوير، حتى يبلغ أعلى عليين، ويستطيع -أيضاً- أن يختار طريق التردّي ويرجع إلى أسفل سافلين: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ٥١ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَفَلِينَ﴾⁽¹⁾.

والعامل الحاسم في هذا التغيير تطويراً أو تدميراً، حركة أو سكوناً، إيجاباً أو سلباً، صلاحاً أو فساداً، خيراً أو شراً، هو العامل التربوي، فالتربية هي التي تحدّد مصير الإنسان ومستقبله، بأن يؤدّي دور الخليفة أو دور الشيطان أو أي دور آخر في الحياة الاجتماعية.

2-3- العدل: يعتبر "العدل" من المفاهيم المركزيّة في الفكر الإسلاميّ، وقيمة اجتماعيّة كبرى، سواء أكان على مستوى الأسرة أم على مستوى المجتمع بقطاعاته المختلفة: السياسية، والثقافية، والتربويّة وغيرها. قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾⁽²⁾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾⁽³⁾. و﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾⁽⁴⁾.

وفي المجال التربويّ -تحديداً- يشكّل "العدل" -بمفهومه الواسع- ركيزة أساسية وقيمة تربويّة، حيث إنّ التربية تعتمد في الجانب النظريّ والتطبيقيّ -معاً- على "العدل"، ففي الجانب النظريّ العدل يعني: أن نضع منهاجاً مبنياً على جميع متطلبات العمل التربويّ-التعليمي، لجهة المتعلّم،

(1) سورة التين، الآية 5.

(2) سورة النساء، الآية 58.

(3) سورة المائدة، الآية 8.

(4) سورة الحديد، الآية 25.

والمعلم، والمنهاج الدراسي، وعملية التقويم وغيرها حتى ينطبق عليه مفهوم العدل: وضع الأمور في مواضعها اللائقة بها، وقد عرّف الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام "العدل" بقوله: "العدل أن نضع الأمور في مواضعها"⁽¹⁾. فلو حصل أي خلل نظريّ أو تنظيريّ على مستوى بناء المنهاج النظريّ-التعليمي، فهذا يعني عدم تحقق الالتزام بمفهوم العدل، وتحقيق الخلل على مستوى العدل النظريّ أو التنظيريّ.

وفي الجانب التطبيقي للعملية التربويّة-التعليمية، العدل يعني الالتزام الكامل بمتطلّبات تطبيقية للعمل التربويّ-التعليمي وتوفير كافة المواصفات والشروط واللوازم والوسائل والآليات التي تساهم في تحقيق دقيق للأهداف المرجوة من العملية التربويّة-التعليمية، فمثلاً لو لم يؤخذ بالاعتبار في عملية التعليم "الفروقات الفردية للمتعلّمين" مع افتراض أنها مسلمة تربوية، فإنّها قد تحقق الخلل التربويّ الذي هو بدوره خلل على مستوى تطبيق العدالة التربويّة، وهذا ما نطلق عليه الالتزام بـ"العدل التطبيقي" في مجال التربية، وقد جسّدت التجربة الإسلاميّة في مجال التربية والتعليم معاني تربوية واجتماعيّة مهمة وجديرة بالدراسة لمفهوم العدل عبر التاريخ الإسلاميّ الطويل، سيّما في الحوزات العلميّة.

تضمينات نظرية للفلسفة التربويّة:

إنّ المبادئ والقيم التي سبق الحديث عنها -إضافة إلى اعتبارات أخرى ذات تأثير في بناء الفلسفة التربويّة- لا تعبّر عن الفلسفة التربويّة، ولا تتحوّل إليها بشكل مباشر، وإنّما تحتاج إلى تضمينات نظرية حتى تشكّل رؤية فلسفية تربوية متكاملة، وذلك انطلاقاً من أنّ الفلسفة التربويّة ليست التراكم المتناثر للقيم والمبادئ كيفما اتفق، وإنما هي صياغة نظرية

(1) راجع: عبده، محمد، شرح نهج البلاغة، لا ط، بيروت، دار المعرفة، ج4، ص 102.

محكمة لتلك الأسس والاعتبارات بحيث تكشف عن صورة واضحة الملامح والأسس، ومترابطة فيما بينها، ومعبرة عن توجه تربوي مُحكم.

ومن هنا نستطيع أن نعبر عن القيم والمبادئ النظرية للفلسفة التربوية بأنها بمثابة المدخلات أو المواد الأولية لهذا البناء، ولا يتكوّن البناء إلا من خلال تنظيم وترتيب ووضع تلك المواد الأولية في مواقع مناسبة لها داخل مركب نظري مشترك ليتكوّن البناء الذي نعبر عنه بـ "الفلسفة التربوية". وتسا هم -بشكل أساسي- في هذا البناء المناهج المستخدمة، والمباني المعتمدة، والاتجاهات الراسخة فينا، وما يتكوّن من خلال تلك الأمور من مفاهيم.

فلو افترضنا أن المدخلات هي كالتالي:

المبادئ + القيم + عوامل أخرى + تضمنات نظرية = الفلسفة التربوية

فينبغي البحث عن الدور التركيبي لهذه المدخلات في صنع الفلسفة التربوية، وكمثال -على ما نقول- ينبغي أن نتحدّث عن الجانب المفاهيمي لمفردات المدخلات، ومن ثم الحديث عن المعاني التركيبية من خلال التنظير للمركب (مجمل العوامل المؤثرة والمكونة للمضمون التربوي). وذلك بهدف تكوين المفهوم لمفردات المبادئ (التوحيد، التعبد، التزكية، الوسطية، والاستخلاف)، وتكوين المفهوم لمفردات القيم (الإيمان، الكرامة الإنسانية، والعدل)، ومن ثم تكوين المفهوم التركيبي للجميع، وهذا ما يتطلّب منّا الحديث عن العوامل المؤثرة في تكوين المفهوم كالمنهج، والاتجاه، والمباني المعتمدة:

فإن مفهومنا للتوحيد(المبدأ)، ومفهوما للإيمان (القيمة) -مثلاً- يختلف حسب المنهج المعتمد، فإذا اعتمدنا المنهج النقلي الروائي، فالأساس لتكوين المفهوم هي الآيات والروايات الواردة حول المفهومين، في حين أنه إذا اعتمدنا المنهج العقلي، فسوف تُصيغ مفهومنا للمبادئ

والقيم الاعتبارية العقلية، وأما لو كان المنهج المعتمد هو المركب من النقلية-العقلية، فسوف يختلف المفهوم بدوره أيضاً؛ وذلك باعتبارين: الأول: باعتبار تكوين المفهوم العقلية-النقلية للمفهومين، والثاني: باعتبار تكوين المفهوم المركب من الاثنين انطلاقاً من المنهج العقلية-النقلية، والذي يتطلب تارة تفسير العقلية حسب النقلية وأخرى تفسير النقلية حسب العقلية، فتغليب الجانب العقلية يوّلد توجّهاً عقلياً، في حين أن تغليب الجانب النقلية يوّلد توجّهاً نقلياً، وهكذا الأمر بالنسبة إلى الاتجاه، فالتوجه العلماني إلى الدين وقضاياها، والأخذ بمبدأ الفصل بين الدين وقضايا الحياة سوف ينعكس بشكل واضح على صياغتنا النظرية للفلسفة التربوية من منظور إسلامي.

فلو اعتمدنا مبدأ الفصل، فتارة نذكر وجود الفلسفة التربوية الإسلامية، وأخرى لا نعترف بها على صعيد التربية وقضاياها، وهناك صورة ثالثة للعلمانية التي تنطلق من الإسلام واعتباراته، ولكن تلتقي مع العلمانية المذهبية في النتيجة، أي اعتماد مبدأ الفصل بين ما هو ديني وما هو دنيوي، والأخيرة قد تعتقد بوجود الفلسفة التربوية الإسلامية، وقد تتبناها أيضاً، إلا أنها تعتقد بأن القضايا الدينية مفصولة تماماً عن قضايا دنيوية، ولا يوجد أي نوع من الصلة فيما بينهما، والخلط بينهما يؤدّي إلى الإضرار بـ"خلوص الدين"، وينتهي إلى خسران نقاء الدين وصفائه. من هنا، فإن هؤلاء ينطلقون من الدين إلى الدين -العلاقة أحادية- لا من الدين إلى الدنيا ولا من الدنيا إلى الدين، وهي نظرة تؤدّي إلى اقصاء الدين وعزله عن الدنيا واعتباراتها المنحطة. وهذه النظرة -كما قلنا- علمانية -أيضاً- في النتيجة، من دون أن تعتمد أو تنطلق من الأسس والاعتبارات العلمانية المذهبية. وأما لو أخذنا بمبدأ الوحدة بين ما هو ديني وما هو دنيوي، فإننا نستطيع أن نتحرك من جهتين وتكون النتيجة واحدة؛ نطلق من الدين إلى الدنيا، ومن الدنيا إلى الدين، انطلاقاً من أنهما وجهان لعملة

واحدة. وهكذا الأمر في المباني والاعتبارات الأخرى المؤثرة في تكوين المفهوم بشكله الأفرادي والتركيبى.

النظرية التربوية:

إن الفلسفة التربوية وتضميناتها بمثابة المدخلات لبناء النظرية التربوية المطلوبة، فلو انتزعنا من "الفلسفة التربوية" المنطلقة من المبادئ والقيم السابقة أنها تدعو إلى تربية "الإنسان الصالح" فإننا ملزمون من حيث المبدأ في تعريفنا للإنسان الصالح بالتقيّد بالأسس والمبادئ والقيم والدوافع والميول المكوّنة للفلسفة التربوية الإسلامية؛ وعليه فالإنسان الصالح المطلوب تربويًا -من منظور إسلاميٍّ وحسب الاعتبارات السابقة- هو:

1- الإنسان الذي يمتلك نزعة توحيدية، ومشاعر تدعوه إلى التعلّق بالله والتعبّد بتكاليفه؛ وإحساسًا بالحاجة إلى التزكية المستمرة والدائمة للتوجّه نحو الكمال المطلق واللامتناهي، مراعيًا مبدأ الوسطية في كلّ ما يقوم به، وكل ذلك انطلاقًا من كونه خليفة لله على الأرض ومستأمنًا من قبله على نفسه وعلى الآخرين وعلى الطبيعة (تضمينات المبادئ العامة).

2- الإنسان الصالح -من منظور إسلاميٍّ- هو الإنسان الذي يترسّخ فيه الإيمان بالله وما يترتب على ذلك من نتائج وتبعات، ويندفع بالميول والدوافع الربانيّة التي يحددها هذا الإطار، ويعرف جيدًا أهميّة دوره في الحياة وموقعه في المنظومة الكونية. وينطلق في ممارسة هذا الدور من أسس واعتبارات تمنح عمله الجدوائية، وسلوكه الاتزان، وعلاقته بالآخرين الرفق والمسؤولية (تضمينات القيم).

3- الإنسان الصالح هو الذي يصنع علاقات اجتماعية بين الناس ذات جانب موضوعي نظيف، لا يقتصر على المنافع والفوائد الاجتماعية

فحسب بل ينبغي أن تنبع تلك العلاقات من جوانب ذاتية مشرقة في نفس الإنسان⁽¹⁾، كحب الخير، والشعور بالمسؤولية تجاه الآخرين، وامتلاك حسّ التفاني والإيثار، والضمير الأخلاقي الحيّ (تضمينات الدوافع والميولات الاجتماعية-الأخلاقية).

4- الإنسان الصالح هو الذي يصنع قراره بملء إرادته واختياره، أساسه المعرفة والقناعة والتدبّر والتعقّل؛ فلا يختار إلاّ الصحيح النافع له ولمجتمعه (تضمينات مبدأ الكرامة الإنسانية).

5- الإنسان الصالح هو الإنسان الباحث عن الطرق والوسائل والآليات والنظم الكفيلة برقيّ المجتمع، والقادر على الاستخدام الصحيح لكل التقنيات المتوفرة لديه لإعمار الأرض وبناء الحياة وتطويرها بغية إسعاد البشرية (تضمينات مبدأ الاستخلاف).

6- الإنسان الصالح هو الإنسان القادر على إدارة العملية التربويّة، والقابل لتلقّي العملية التربويّة ضمن معادلة: المبادئ + القيم + الدوافع والميولات الناتجة عن المبادئ والقيم + تضمينات نظرية فاعلة + أهداف تربوية واضحة + طرق ووسائل تربوية منسجمة مع حاجات المجتمع والمتعلّم = العملية التربويّة المطلوبة.

7- وبالاعتماد على ما سبق الكلامُ عنه في الفقرات السابقة، يمكن القول إنّ العملية التربويّة المطلوبة هي تلك العملية المبنية على: فلسفة تربوية محكمة، نظرية تربوية محددة، أهداف تربوية واضحة، ثقافة تربوية راسخة، ومنهج تربوي متكامل ومبني على الأسس والاعتبارات السالفة الذكر، كل ذلك من خلال طرق ووسائل ملائمة ومتماشية مع حاجات المجتمع والفرد في العصر المعاش.

(1) راجع: الصدر: العمل الصالح في القرآن، م.س، ص 36.

سمات المنهج التربويّ في الإسلام:

للمنهج التربويّ في الرّؤية الإسلاميّة العديد من المميّزات، من أهمّها:

1. ربانيّة المنهج التربويّ:

إنّ المنهج الإسلاميّ الذي يمكن تحديد معالمه وقواعده بالاستناد إلى القرآن الكريم والسُنّة النبوية المطهرة وما أثر عن الأئمة المعصومين عليهم السلام يهدف إلى تحقيق تربية متّزنة للإنسان تبدأ من قبل أن تنعقد نطفته ويصبح جنيناً في رحم الأم، وتستمر معه إلى أن يشبّ، مروراً بمرحلة الحمل والولادة والرضاعة والطفولة المبكرة، وصولاً إلى انخراطه في الكيان الأسري والاجتماعي، ولهذا فإنّ الإنسان: "نوع وجودي"، له غاية وجوديّة لا ينالها إلا بالاجتماع المدني، كما يشهد تجهيز وجوده بما لا يستغني به عن سائر أمثاله، كالذكورة والأنوثة، والعواطف والإحساسات، وكثرة الحوائج وتراكمها. وإنّ تحقّق هذا الاجتماع وانعقاد المجتمع الإنسانيّ، يحوج أفراد المجتمع إلى أحكام وقوانين ينتظم باحترامها والعمل بها شتات أمورهم، ويرتفع بها اختلافاتهم الضروريّة، ويقف بها كلّ منهم في موقفه الذي ينبغي له، ويحوز بها سعادته وكماله الوجودي⁽¹⁾.

وإنّ ما يعطي القيمة الحقيقيّة لهذه القوانين والأنظمة انتسابها إلى الرب الذي خلق الكون والبشر، وقد تضافرت الروايات في ربانيّة هذا المنهج في الأصول والفروع والقيم، نذكر منها ما جاء عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام حيث قال: «والله ما نقول بأهوائنا، ولا نقول برأينا، ولا نقول إلاّ ما قال ربّنا»⁽²⁾. ووضّح عليه السلام سلسلة الحديث، ومصادره، فأرجعها إلى جده رسول الله صلى الله عليه وآله، وإلى الله - تعالى - فقال: «حديثي حديث أبي، وحديث أبي حديث جدّي، وحديث جدّي حديث الحسين، وحديث الحسين حديث

(1) الطباطبائي، محمد حسين: الميزان في تفسير القرآن، لا ط، قم، مؤسسة النشر الإسلامي، لا ت، ج12، ص200.

(2) المجلسي، محمد باقر: بحار الأنوار، ط2، بيروت، مؤسسة الوفاء، 1402هـ ج2، ص173.

الحسن، وحديث الحسن حديث أمير المؤمنين، وحديث أمير المؤمنين حديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وحديث رسول الله قول الله عز وجل⁽¹⁾. ومن الآثار المباشرة لربانية المنهج أنها تزرع في نفس الإنسان حالة التقديس للمنهج التربوي؛ وهذا التقديس يدفع الإنسان إلى العمل الدؤوب لتطبيق قواعد المنهج في نفسه وأسرته ومجتمعه، والارتباط بكل ما يريده ربه، فيرتبط بالأصول التربوية في القرآن، وبالعبادات وما فيها من قيم روحية والالتقاء بالصالحين. وهذا ما يحقق الاستقامة في السلوك، فيستشعر معه الفرد الحماية، والأمن، والاطمئنان، والشفاء من الأمراض السلوكية والاجتماعية.

ولكي لا تُترك الأمة تائهة، بعث الله - تعالى - الأنبياء والرسل للناس كافة، ورسم لهم الطريق الواضح الموصل إلى السعادة الحقيقية، وللتربية في ضوء هذا الطريق الدور الأساس في بناء المجتمعات والأمم ورسم مستقبلها، والتأثير المباشر على السلوك؛ فهو الذي يجعل الإيمان والشعور الباطني به حركة سلوكية في الحياة متفاعلة مع ما يُحدّد لها من تعاليم وبرامج.

2. شمولية المنهج التربوي:

يمتاز منهج أهل البيت عليهم السلام التربوي بالشمولية؛ فهو يراعي الإنسان في جميع مقوماته الفطرية والتكوينية، وينظر إليه من جميع جوانبه. إذ إنّ الإنسان مخلوق مزدوج الطبيعة؛ مكوّن من روح وعقل وغرائز، ومن جسد متعدّد الجوارح، وقد وضع هذا المنهج للإنسان بشكل عام؛ فلا انفصال بين حاجات الجسد وحاجات الروح، ويدعو إلى إشباع حاجات الإنسان لكي يتقبّل ما يلقي إليه من قواعد وأسس تربوية وتوجيهية وإرشادية.

(1) الكليني، محمد بن يعقوب: الكافي، ط5، طهران، دار الكتب الإسلامية، 1363 هـ ج1، ص53.

ويواكب هذا المنهج حركة الإنسان في جميع مراحلها ابتداءً باختيار شريك الحياة المناسب مروراً بمرحلة الاقتران وانعقاد الجنين ومراحل الطفولة، ويضع لكل مرحلة تعاليم وتوجيهات منسجمة مع عمر الطفل الزمني والعقلي، ومع حاجاته المادية والروحية، ثم تأتي التكاليف حينما يصل الطفل إلى مرحلة من النضج الجسدي والعقلي؛ لتكون هي الموجهة له في حركته الواقعية في الحياة.

ويتدخل المنهج في صناعة البيئة التربوية، فيدعو إلى إصلاح المحيط التربوي المتمثل بالأسرة، والأصدقاء، وحلقات الذكر، ومراعاة الحقوق والواجبات، وتجنب المشاكل والخلافات، وإشباع حاجات الطفل إلى الحب والحنان والتكريم وإشعاره بذاته. روي عن أمير المؤمنين عليه السلام: "المؤمن مألوف، ولا خير فيمن لا يَأْلَفُ ولا يُؤْلَفُ"⁽¹⁾. ومفردة "ألف" في اللغة العربية تدل على انضمام شيء إلى شيء⁽²⁾، والألفة من الائتلاف، وهو الإلتئام والاجتماع، وتألف القوم: اجتمعوا وتحابوا، والألفة الأُنس والمحبة⁽³⁾، والأُنس سكون القلب، وهو ضد الوحشة.

3. واقعية المنهج وتوازنه:

يتسم المنهج التربوي الإسلامي بالواقعية والالتزان، وتبرز واقعيته من خلال ما يلي:

- أنه راعى واقع الإنسان؛ فنظر إلى جوانبه كافة، ودعا إلى إشباعها بتوازن؛ بحيث لا يطغى جانب على جانب آخر، أو ناحية على ناحية أخرى، وقد وضع لكل جانب مقوماته وحدوده الواقعية؛ فلا تقييد مطبق، ولا

(1) الكليني، الكافي، م.س، ج2، ص102.

(2) ابن فارس، أحمد: معجم مقاييس اللغة، م.س، 1404هـ، ج1، ص131.

(3) الفيومي، أحمد بن محمد: المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي، لا ط، بيروت، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، لا ت،

ج1، ص18.

إطلاق العنان دون تناهٍ. ومن واقعية هذا المنهج تركيزه على دور القيم المعنوية في التربية ومنها الإيمان بالله- تعالى- وبالعقاب والثواب.

- أنه ثابت في أصوله وأسسهِ، متطوّر في أساليبه ووسائله، كما روي عن أمير المؤمنين عليه السلام قوله: «لا تقسروا أولادكم على آدابكم، فإنهم مخلوقون لزمان غير زمانكم»⁽¹⁾.

- أنه راعى واقع الإنسان (النفسي، والروحي، والمعنوي) وحاجاته المتنوّعة، حيث راعى فطرة الإنسان في ميلها إلى الترويح عن النفس، فسّن لها الألعاب المنسجمة مع إنسانية الإنسان، مثل: الفروسية، والسباحة، والرمي، وما شابه ذلك، وأباح له الملكية الفردية في حدودها المشروعة، ووضع له قواعد موضوعية في العلاقات، والمعاملات والممارسات، وجعل نظام العقوبات منسجماً مع فطرة الإنسان، وواقعه، مع مراعاة ظروف الانحراف والجريمة وأسبابها وعواملها.

أما ميزة الاتزان في المنهج، فتظهر من خلال:

- أنه يوازن في توجيه الإنسان بين طلب الدنيا وطلب الآخرة، فلا يمنع من التمتع بالطيبات الدنيوية- مثل: المأكل والمشرب، والملبس، والمسكن، والإشباع العاطفي والجنسي-؛ لأن الحرمان منها يولّد القلق والاضطراب، وإنما يضع القيود، ويوجّه الإنسان في الوقت نفسه إلى الإعداد للدار الآخرة من خلال الالتزام بالأوامر والنواهي الإلهية، فلا يطغى طلب الدنيا على طلب الآخرة بالانغماس بالطيبات والملذّات دون قيود أو حدود، ولا يطغى طلب الآخرة على طلب الدنيا بحرمان الإنسان من متعها المشروعة. روي عن الإمام موسى بن جعفر الكاظم عليه السلام: «اجتهدوا في أن يكون زمانكم أربع ساعات: ساعة لمناجاة الله، وساعة لأمر

(1) المعتزلي، ابن أبي حديد: شرح نهج البلاغة، ط2، قم، منشورات مكتبة المرعشي النجفي، 1967م، ج 20، ص 267.

المعاش، وساعة لمعاشرة الأخوان والثقات الذين يعرفونكم عيوبكم، ويخلصون لكم في الباطن، وساعة تخلون فيها للذاتكم في غير محرّم، وبهذه الساعة تقدرون على الثلاث ساعات»⁽¹⁾.

- يوازن بين اللين والشدة في التعامل فلا إفراط ولا تفريط، كما يوازن المنهج التربوي بين مجالات المسؤولية، ويجعلها موزعة على الجميع؛ فالفرد مسؤول عن نفسه وعن غيره، والمجتمع مسؤول عن نفسه وعن أفراد، فثمة مسؤولية فردية، وثمة مسؤولية اجتماعية، والمسؤولية موزعة؛ فالأب مسؤول عن أسرته والأم كذلك، والكبير مسؤول عن الصغير، والمدرسة والتجمعات الاجتماعية والعلماء والدولة، مسؤولون عن الأفراد وعن المجتمع، وتكون المسؤولية قائمة على أساس تقسيم الحقوق والواجبات؛ فللفرد حقوق وواجبات، وللأسرة حقوق وواجبات، وللمجتمع حقوق وواجبات، ويجب أن لا يطغى حق على حق، ولا واجب على واجب، ولا حق على واجب، ولا واجب على حق.

4. **المنهج التربوي المشترك:** إن وحدة المنهج تؤدي إلى وحدة السلوك؛ فالمنهج الواحد هو المعيار والميزان الذي يوزن فيه السلوك من حيث الابتعاد أو الاقتراب من التعاليم والبرامج الموضوعة، فيجب الاتفاق على منهج واحد مشترك يحدّد العلاقات والأدوار والواجبات في مختلف الجوانب. والمنهج الإسلامي بقواعده الثابتة من أفضل المناهج التي يجب تبنيها وأكملها، وذلك لاتصافه بأنه:

- منهج رباني موضوع من قبل الله - تعالى - المهيمن على الحياة بأسرها، والمحيط بكل دقائق الأمور وتعقيدات الحياة.

- منهج منسجم مع الفطرة الإنسانية لا لبس فيه ولا غموض ولا تعقيد؛ وذلك لأن جميع التوجيهات والقواعد السلوكية تستمد قوتها وفعاليتها

(1) الحراني، أبو محمد: تحف العقول، ط2، قم، مؤسسة النشر الإسلامي، 1404هـ ص409.

من الله- تعالى-، وهذه الخاصية تدفع الأسرة والمجتمع إلى الاقتناع باتباع هذا المنهج وتقرير مبادئه في داخلها.

- كفيل بتحقيق السعادة الأسرية والاجتماعية التي تساعد على التربية الصالحة والسليمة.

وقد وضع المنهج الإسلامي قواعد كلية في التعامل والعلاقات والأدوار والسلوك، أمّا تفاصيل القواعد الكلية ومصاديقها، فإنّها تتغيّر بتغيّر الظروف والعصور، ولهذا يجب الاتفاق على القواعد والمعايير والأساليب.

مكانة الأهداف التربوية وعلاقتها بالمنهج:

إنّ موضوع التربية ومحوها هو الإنسان، والإنسان من أكثر مخلوقات الله حاجة إلى التربية، ويعرّف بعضهم علم التربية بأنه: علم وضع من أجل تهذيب الخلق الإنساني، فالهدف الأعلى من التربية يظهر بتزويد الإنسان بثروة روحية، ومعنوية تجعل منه إنساناً صالحاً، وأميناً على منجزات العلم والحضارة. وهذا ما اختصره لنا الحديث الشريف "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق"⁽¹⁾، وليست التربية مرحلة وقتية تتناسب مع سن معين أو مرحلة نمو خاص دون مرحلة أخرى، بل هي ترافق كل مراحل الحياة، منذ اللحظة الأولى إلى اللحظة الأخيرة، وعلى الإنسان أن يتربّى ويخضع لأنماط من التوجيه كي يستطيع مواكبة التطور والتجدّد والتكيف مع الواقع الجديد، وهذا ما عبر عنه بعض التربويين بقوله: "التربية عملية تكيف أو تفاعل ما بين المتعلم والبيئة التي يعيش فيها"⁽²⁾.

الأهداف التربوية:

تلعب الأهداف دوراً أساسياً في بناء المناهج التعليمية، فالهدف هو البرزخ بين الدافع والنتيجة⁽³⁾، والدافع هو الحافز الموجّه للسلوك

(1) جورج شهلا: الوعي التربوي، لا ط، بيروت، دار العلم للملايين، 1982، ص37.

(2) انظر: فضل الله، محمد رضا: المعلم والتربية، لا ط، بيروت، دار أجيال المصطفى ﷺ، 1995، ص8-11.

(3) يفرّق بعض الباحثين بين الهدف والغرض، فيعتبر الهدف عامّاً يرتبط بمناهج التربية، أما الغرض فهو هدف خاص، مرتبط بمقرر دراسي معيّن.

الإنساني بغض النظر عما تكون عليه النتيجة المتوقعة، ولكن عندما يفكر صاحب هذا السلوك في النتائج المترتبة على سلوكه، فإن هذا الدافع يتحوّل إلى هدف وغرض، "فالهدف هو استبصار سابق للنهاية في ظل الظروف الحاضرة"، وهو بهذا المعنى يوجّه النشاط ويؤثر في الخطوات السلوكية المؤدّية إليه بما يتضمّن من دقّة الملاحظة للأحوال والظروف والكشف عن معوقات الطريق نحو هذه الغاية الممكنة، وتهيئة الفرص لظهور البدائل الممكنة التي تتخذ سبيلاً لتحقيق هذه الغاية، ثم لتسهيل عملية الترتيب بينها واختيار أصلحها، والعمل على تيسير استخدام الوسيلة المختارة لتحقيق الغاية. أما النتيجة فهي ما ترتّب فعلاً على أداء السلوك⁽¹⁾.

ويتكوّن المنهج من أربعة عناصر: الأهداف، المحتوى (المقرّر الدراسي)، الخبرات التعليمية (طرق وأساليب التدريس)، عملية التقويم، وهذه العناصر لا تشكل كيانات منفصلة عن بعضها، بل هي مترابطة مع بعضها ترابطاً وثيقاً، بحيث يؤثر كل منها في الآخر ويتأثر به وتشكل جميعها كلاً متكامل الأجزاء. والأهداف كما هو واضح من تقسيم وترتيب العناصر تشكل العنصر الأول التي منها ينطلق المنهج، وهي تؤثر بشكل واضح في المحتوى، بمعنى أن الأهداف تحدد نوع المحتوى وطبيعته⁽²⁾.

طبيعة الهدف التربويّ للمنهج:

الهدف التربويّ هو التغيير المراد استحداثه في سلوك المتعلّم أو فكره أو وجدانه، وكما تؤثر الأهداف في المحتوى، كذلك تتأثر وتتفاعل مع أنظمة المجتمع ونظام الفرد، وهذا التفاعل مستمر، فمن هنا قد يسأل بعض الباحثين عن طبيعة الهدف التربويّ هل هو ثابت أم متغير؟ هل تؤثر الخبرة في الهدف أو لا؟ هل الهدف التربويّ ذو صلة بالحاضر أو

(1) قورة، سليمان: الأصول التربويّة في بناء المناهج، لا ط، القاهرة، دار المعارف، 1982م، ص385.

(2) نشوان، يعقوب: المنهج التربويّ من منظور إسلامي، لا ط، عمان، دار الفرقان، 1991م، ص90 - 92.

بالمستقبل أم لا؟ وهل تتحول الأهداف التربوية إلى وسائل لأهداف أخرى؟ وأسئلة أخرى ترتبط كلها بطبيعة الهدف في المنهج. ونحاول في هذه العجالة الإجابة على هذه التساؤلات ولو بشكل مختصر:

- **الهدف ثابت أم متغير:** بناء على اعتبار الأهداف نظاماً فرعياً من المنهج العام، فإن هذا النظام سيتفاعل مع الأنظمة الداخلية (العناصر) التي تكوّن المنهج، وسيتفاعل مع الأنظمة الأخرى أيضاً، مثل نظام المجتمع ونظام الفرد، حيث يؤثر فيها ويتأثر بها، وهذا يجعلنا نخرج بنتيجة أن الأهداف متغيرة طبقاً للتغيرات في حاجات الفرد وحاجات المجتمع. وعليه لا توجد أهداف ثابتة عبر الأزمنة، ولكن هل ينسجم عدم ثبات الأهداف مع الرسالة التربوية الإسلامية ومع الحوزة العلمية؟ خصوصاً أن هناك جملة من الأهداف العام الضرورية التي لا يمكن التخلي عنها، وتشكل رسالة الحوزة، ويقوم عليها الكيان الحوزوي. إن النظريات المطروحة في هذا المجال متعددة يمكن حصرها في ثلاث نظريات:

الأولى: ثبات الأهداف: يعتبر بعض الباحثين أن التغير في الهدف يحمل على الشك وعدم الوثوق به، فلا بد من ثبات الأهداف سواء في التخطيط للعملية التعليمية أو في مجال تنفيذها، ولكي تكون الأهداف ثابتة لا بد أن تتوفر فيه عدة خصوصيات، منها: أن يكون الهدف مطلقاً، بمعنى أن لا ينسب لعوامل زمنية - مكانية، وأن يكون قانوناً عاماً بمعنى أن يهتم بالمجردات والجوهريات.⁽¹⁾

الثانية: تغير الأهداف: ويعتبر بعضهم بأن فكرة ثبوت الأهداف فكرة خطيرة على المتعلمين والمناهج التعليمية، فلا بد أن تتعدّد - أو تتغير - الأهداف طبقاً للمواصفات التي ينتهي إليها العالم في وضعه الأخير أو الحاضر حتى لا يتعارض أحدهما، فتفشل المناهج التربوية في تحقيق أهدافها.

(1) و(2) فورة: الأصول التربوية في بناء المناهج، م.س، ص 387 - 388.

الثالثة: مرونة الأهداف التربويّة: قد نعتبر من وجهة نظر إسلاميّة أنه لا يوجد هدف ثابت بالمطلق، ولا متغيّر بالمطلق، لأنّه إذا كنا ننظر إلى أهداف الشريعة (فهي أهداف لكل زمان ومكان)؛ لأنّ هذا هو معنى الشريعة الخالدة، ولكن إن كنا ننظر إلى الأهداف المشتقة من أهداف الشريعة، وهي ما نطلق عليه أهداف المنهج أو أهداف البرنامج الدراسي، أو أهداف الحصة الدراسية، فهي أهداف متغيرة تخضع لعوامل الزمان والمكان؛ لأنّ فلسفة التعليم قائمة على إحداث نوع من التغير في البيئة والظروف التي يعيش فيها الفرد.

أسس تشكّل الأهداف العامة للتربية:

لا شك بأن لكل مجتمع فلسفة اجتماعيّة معينة تنتج من قيمه ومثله، وهي بالتالي تعتبر مصدر أهدافه التربويّة لذلك المجتمع، فتحديد الأهداف في المنهج الدراسي لا تأتي من فراغ، فهي لا بد أن تشتق من حاجات الفرد والمجتمع. وهذه الحاجات تشكل في مجموعها الأهداف العامة للتربية. ففي المجتمع المسلم الذي يعتمد التربية الإسلاميّة نهجًا وأسلوبًا للحياة، فإن مبادئ هذا المجتمع تشتق من القرآن والسنة (العقيدة - الشريعة - والقيم الأخلاقية)؛ إذن تشكل هذه الدوائر الأهداف العامة للمجتمع، سواء أكانت تربوية أو اقتصادية أو اجتماعيّة، إلخ...، ولا بد أن تؤخذ بعين الاعتبار في الأهداف جملة من المواصفات، منها: أن تكون قابلة للتحقيق ضمن ظروف وإمكانيات منظورة، وأن تتناسب هذه الأهداف وتتماشى مع حاجات الطلاب ورغباتهم وقدراتهم، وأن تستقي الأهداف التعليميّة من الأهداف العامة للتربية والتعليم المعمول بها في المجتمع.

أما تشكّل الأهداف التربويّة، فيمكن أن تصنّف تبعًا لأغراضها المحددة، وتحديد الأغراض يؤدّي إلى تكوين أهداف محدّدة، وللأهداف المحدّدة

فوائد كبيرة على المستوى التربويّ التعليمي⁽¹⁾. فنحن كمسلمين مطالبون بالدرجة الأولى بأن نشق أهدافنا التربويّة من الإسلام (العقيدة، الأخلاق، الشريعة الإسلاميّة). ويمكن اختصار الأهداف التربويّة الوسيطة من وجهة نظر الإسلام ضمن أربع مجموعات عامة، وهي كالآتي:

1. الأهداف التربويّة التي يكون الله سبحانه وتعالى هو محور الاهتمام فيها⁽²⁾.

2. الأهداف التربويّة التي يكون الفرد نفسه هو محور الاهتمام فيها.

3. الأهداف التربويّة التي يكون الآخرون هم محور الاهتمام فيها.

4. الأهداف التربويّة التي تكون الطبيعة هي محور الاهتمام فيها.

وذلك على قاعدة أنّ الإنسان معرّض على الدوام لنوع من التعامل والارتباط، فهو داخل دائرة لا تسمح له بأن يتجنّب التأثير وإقامة العلاقات فيها. وإن العناصر التي يمكنها التأثير في كيان الإنسان عبارة عن: الله والآخريين والطبيعة. وللإنسان ارتباط مع عنصر واحد أو أكثر من هذه العناصر على الدوام، وبطبيعة الحال فإن الارتباط مع عنصر أو أكثر لا يشكل مانعاً من الارتباط بالعناصر الأخرى، فمن باب المثال: إنّ الارتباط مع الذات أو الطبيعة أو الآخريين يمكن أن يكون من بعض النواحي ارتباطاً مع الله أيضاً.

(1) انظر: التقويم والاختبار، أهميته، أسسه، أنواعه، ومجالاته، كراسة من إعداد مركز التخطيط والمناهج، لا ط، بيروت، لا ناشر، 1422هـ - 2001م، ص 9.

(2) المراد من هذه الأهداف التربويّة، ليس هو المفهوم العام للارتباط؛ وذلك لأن كل نوع من أنواع نشاط الإنسان إذا أخذ في سياق الارتباط بالله يكون مشتملاً على أثر تربوي، بما في ذلك الأهداف التربويّة التي يكون الملحوظ فيها هو الذات والآخرون والطبيعة. بيد أنّ المنظور فيما يتعلق بالأهداف التربويّة بشأن الله إلى جانب سائر الأهداف الوسيطة الأخرى هو مفهومه الخاص، بمعنى أنه كما يكون الارتباط بالله حاكماً على هذا الهدف، فكذلك محتوى الهدف بشأن الخالق أيضاً، من قبيل: معرفته والتوكل عليه وشكره وما إلى ذلك. لا شك في أنّ هذا النوع من الأهداف يختلف عن الأهداف الأخرى التي يدور محتواها وماهيتها حول غير الله، رغم أنّ الارتباط بالله - بالمعنى العام - يكون حاكماً على هذا النوع من النشاط التربويّ أيضاً.

فإن الأهداف التربوية للإسلام فيما يتعلّق بارتباط الإنسان بخالقه تحكي عن نوع من الارتباط النظريّ والعملّي بين الإنسان وخالقه، وإن ارتباط الإنسان بالله يبدأ من معرفته به، والإيمان به، وبالتقوى الإلهية، والعبودية، والشعور بالتكليف والشكر.

وإنّ الأهداف التربوية للإسلام فيما يتعلّق بارتباط الإنسان بنفسه ترتبط بأفعال الإنسان وردود أفعاله فيما بينه وبين نفسه، وتهيمن على المراحل التربوية لذلك الفعل والانفعال أهداف خاصة أيضاً. والمراد من الأفعال، الاحتياجات والميول، والمراد من الانفعال في دائرة وجود الإنسان تلبية تلك الاحتياجات والميول والرغبات والقوى الجسدية والروحية.

فللإنسان بشكل عام بعدان؛ بعد روحاني، وبعد جسماني. وكل واحد من هذين البعدين يشتمل على طاقات وقابليات مختلفة. ومعيارنا وملاكنا في فهم النصوص الدينية (الآيات والروايات) - من أجل تقسيم وتبويب المراحل المختلفة للأهداف التربوية للإسلام في مجال ارتباط الإنسان بنفسه - هو بنيته الوجودية. وإن بعده الروحي يشتمل على ثلاثة أنحاء متميزة عن بعضها، وهي: الناحية المعرفية، والناحية الانتمائية، والناحية العاطفية، وكل واحدة من هذه الأنحاء - مضافة إلى البعد الجسدي - لها تأثير لا يمكن إنكاره على أوضاع حياة الإنسان وظروف نشاطه، وليس هناك من شيء خارج هذه الأبعاد الوجودية ليكون هو المؤثر، ومن هنا فإن برنامج حركة الإنسان يمكن تقسيمه إلى مشاريع أكثر تحديداً بالنسبة إلى كلّ واحد من أبعاده الوجودية.

وإن أهداف الإسلام التربوية في خصوص علاقة الإنسان بالآخرين ترتبط بنزعة الإنسان إلى إقامة التواصل والارتباط مع أفراد الإنسانية الآخرين، وهو ما أدى إلى تزايد اهتمام المدارس الاجتماعية والفلسفية والعلمية بهذه الظاهرة.

وبالخلاصة إن الإنسان لا يستطيع القيام بتلبية حاجاته بمفرده؛ لهذا يبادر

إلى إقامة العلاقات والتواصل مع الآخرين. إن نزعته إلى تلبية احتياجاته من جهة، ونزوعه إلى التعالي والكمال من جهة أخرى، يعدّان دافعين قويين يحفزانه نحو إقامة العلاقات والروابط على مختلف المستويات. وعليه فمن أجل دراسة الآفاق الارتباطية بين الناس في الإطار الديني، علينا أن نلتفت إلى الاحتياجات الأساسية للوصول إلى الكمال الذي هو منشأ هذا النوع من العلاقات.

دور الحوزة العلمية في صياغة المنهج التربوي:

تمثّل الحوزة العلميّة المرجعيّة التربويّة الأساسيّة لناحية صياغة الرؤية التربويّة، ووضع مرتكزات العملية التعليمية ومكوّناتها المنهجية، فضلاً عن الأنظمة والبرامج المختلفة، فإن وجودها - ككيان علمي وتربوي - يؤديّ وظيفتي التربية والتعليم الهادفة أساساً إلى تربية الإنسان وبلورة البنية المعرفية له، ويرتبط بأشرف وأسمى تكليف إلهي لنبي الإسلام محمد ﷺ والمتعلّق بهداية الناس وتزكيتهم وتعليمهم، قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾⁽¹⁾. وهذا ما يؤكّد دور الحوزة في رد الفكر والمجتمع الإسلاميّ بمنظومة من المناهج والبرامج والرؤى، تحقّق هذه الغاية سيراً على هدي النبي ﷺ، وتثري العملية التربويّة والتعليمية، وتؤمّن الدقة والموضوعية والواقعية في صياغة الأهداف، فضلاً عن سلامة تحقيقها؛ ولهذا يجب أن تكون الحوزة في حالة نموّ وتطور دائمين، فالحركة والتطور هما قوام حيوية الأفكار والمبادئ، وبهما تضمن الكيانات الفكرية والعلميّة حياتها وقدرتها على الاستمرار ومواصلة المسار؛ لأن الفكر الذي يتخلّف عن مواكبة الأزمنة والعصور، ويفتقد القدرة على تلبية متطلّبات الحياة والمجتمع، هو في الحقيقة، ليس فكراً حياً؛ لأنه

(1) سورة الجمعة، الآية: 2.

يفتقر إلى الحركة، وما يتّسم بالجمود سيفضي بكل شيء إلى الموت حتّمًا. ولا بدّ للكيان الحوزوي من أن يكون حيًّا فاعلاً في الحياة الاجتماعيّة في كل الأزمنة والعصور، ومساهمًا في رفق المجتمع بكل عناصر القوّة والثبات، وأن يكون متجاوبًا مع تطلّعات العصر ومنجزاته ومتطلّباته، خاصة وأنا عندما نتصفّح أوراق تاريخ الحوزة العلميّة لقرون خلت سواء أكان في حوزة جبل عامل، أم في حوزتي قم والري أو بغداد، وبعدها في حوزتي النجف وقم، نجدها متألّقة زاهية، وتتناوبا حالة من الاعتزاز والفخر حينما نلاحظ أعلام الطائفة مثل الصدوقين، والكليني، والشيخ المفيد، والسيد المرتضى، وشيخ الطائفة، والعلامة الحلي، والمحقق وفخر المحقّقين... وأضربهم كثير ممن امتلئت بهم ساحات العلم والجهاد ومواجهة الظالمين، واستطاعوا أن يرتقوا بمدارسهم الفكرية وجهادهم إلى قمة التطوّر وذرورة الإنسجام مع الواقع الذي كانوا يعيشونه، في معادلة حافظوا فيها على الأصالة العلميّة للحوزة وثوابتها، ورسوموا للمجتمع معالم وأسس المقاومة العلميّة والفكرية- التي كانوا قادتها- في مواجهة الظالمين والمستكبرين.

ومن الواضح أن الدين الإسلاميّ هو مشروع لتغيير حياة الأمة إيجابًا في مختلف الأبعاد التي تهّم الحياة الإنسانية وبكل متطلّباتها، بما ينسجم مع قيم هذا الدين، ومن المعلوم أن العلماء من المحدثين والفقهاء والمجتهدين والمتكلمين وغيرهم في عصر الغيبة، ومن بعدهم المراكز والحوزات العلميّة قد أخذوا على عاتقهم وظيفة التصديّ في تبليغ الرسالة، وتفسير الدين بما هو منظومة متكاملة للحياة، وشرح النظريات الدينية المختلفة، وبالتالي فمن يريد فهم الدين ونظرياته لا بد أن يسأل المفسّر الرسمي له وهو الحوزات العلميّة وعلمائها ومرجعياتها العلميّة، فإن لم تتدخّل الحوزة بمؤسّساتها وعلمائها وأساتذتها للإجابة عن هذه التساؤلات ووضع الحلول المناسبة لها، فهذا يعني أنها تترك الساحة لغيرها، فالآخرون سوف لن يسكتوا عن ذلك؛ لأن هذه القضايا الحية تتطلّب إجابات ومعالجات

منهجية وعلمية موضوعية، فإن حركة الحياة لا تتوقف بسكوننا، بل سيقدّم الآخرون نظرياتهم ورؤاهم وقراءاتهم في هذه المجالات باسم الدين، ولا يمكن بالطبع أن نحظر عليهم ذلك!!

لهذا لا مجال للتردد في أن مسؤولية الحوزة العلمية عالمية وشاملة، وفي سُلّم أولوياتها الإنسان والمجتمع، ومتابعة واقع العصر والإنسان المعاصر، ودراسة أفكاره، وشؤون، ومعرفة تطلعاته من أجل التخطيط للحركة الحوزوية التي عليها أن تنطلق من هذه الأرضية؛ إذ لا مكان لإنسان يكون خارج نطاق مسؤولية الحوزة مهما كانت قناعاته المذهبية والدينية. "فالإحساس بالمسؤولية" تجاه الحوزة ذاتها والتاريخ والأمة الإسلامية يشكّل حافزاً أساسياً بالنسبة إلى الحوزويين طلاباً وأساتذة ومسؤولين، وبدون تكوين هذا الإحساس الجماعي لا يمكن القيام بأي عمل جاد وأساسي على مستوى من النضج والدقة والمتانة، كما أن أي تطوّر وتطوير يصعب حصوله دون وجود المتابعة الجادة، مثلها الثقة والاطمئنان بالنتائج وبالمستقبل، وحينئذ فمن الممكن أن نعتبر أن هؤلاء الحوزويين قد تحوّلوا بالفعل إلى نقطة أمل للأمة وأنهم من صانعي مستقبل هذا المجتمع وسائر المجتمعات الإسلامية"⁽¹⁾.

ولا بد من الإشارة هنا إلى أن هذا الطرح يستند بشكل أساسي على رسالة الحوزة العلمية وأهدافها، المتمثلة بفهم الإسلام (عقيدة، وشريعة، ومنهاجاً شاملاً يغطي شؤون الحياة كلها) من خلال فهم الكتاب والسنة، وبالاعتماد على الدراسات المنهجية المعمّقة المرتكزة على مبدأ الاجتهاد بمختلف أدواته، إضافة إلى وظيفة إيجاد المناخ العلمي الواعي، ونشر الشريعة وتبليغها تمهيداً لبناء المجتمع الإنساني المتّزن الذي تسوده العدالة والرحمة والمودة والعزة والكرامة.

(1) من خطاب في لقاء طلاب مدرسة الملا جعفر مجتهدى، تاريخ 1360/9/29 هـ.ش.

وينطلق في بعده التربوي من تمييز الفلسفة التربوية للحوزة العلمية،
فلسفة التربية تعني مجموع المبادئ، والمفاهيم، والقيم، والميول التي
تشكل معاً إطاراً موجهاً لسلوك الفرد، أو الأسرة، أو المؤسسة، في العمل، أو
التربية، أو الحياة⁽¹⁾. وتعتبر فلسفة التربية القاعدة النظرية الأولى لاشتقاق
مواصفات الإنسان المطلوب بالتربية المنهجية، ومن ثم بناء الأهداف
التربوية العامة والخاصة.

وتشكل أطروحة الإمام الخامنئي عليه السلام في هذا المجال مفصلاً حاسماً في
تاريخ الحوزة العلمية، وضرورة سيادة دورها الريادي في الساحة العلمية
والتربوية العالمية، وقدرتها على أن تكون مركز تأسيس النظريات والعلوم،
وتوجيه العملية التعليمية والتربوية باتجاه الأهداف الواقعية، وتمتاز هذه
الأطروحة بأنها تنطلق من أصالة الحوزة وعمقها؛ ولهذا فإننا حينما نتحدث
عن البناء وتجديد مؤسسة الحوزة، لا ينبغي أن يتصور أحد أننا نقصد هدم
جميع أركان الحوزة. ليس الأمر هكذا إطلاقاً، بل لا بد من الاستفادة الكاملة
من الطاقات والذخائر الثمينة لحوزة قم العلمية، وأن يصار إلى تنظيمها،
وأن يمتنع عن تكرار الأعمال السابقة.

كما تستند هذه الأطروحة على مبدأ التخطيط، الذي يعتبر ركناً أساسياً
لكل عمل منظم ومدروس؛ ولذلك ورد التأكيد عليه في الروايات الماثورة
عن المعصومين عليهم السلام، روي عن الإمام علي عليه السلام: «قَدَّرْ ثُمَّ اقْطَعْ، وَفَكَّرْ
ثُمَّ انْطِقْ، وَتَبَيَّنْ ثُمَّ اْعْمَلْ»⁽²⁾. وهو في المصطلح الإداري عبارة عن: "عملية
تفكير وتقدير منهجية واعية لاستشراف المستقبل، وتوقع أحداثه، بغرض
التحكم فيها وتوجيهها تحقيقاً للأهداف المرسومة". ولعملية التخطيط
هذه مجموعة من الأسس أهمها:

أ- **تحديد الأهداف:** يعتبر تحديد الأهداف جزءاً أساسياً من عملية التخطيط،

(1) راجع: حمدان، محمد زياد: أساسيات المنهج الدراسي، م.س، ص 6.

(2) الواسطي، علي بن محمد: عيون الحكم والمواعظ، لا ط، قم، دار الحديث، 1376هـ-ش، ص 371.

ويشير الإمام الخامنئي إلى ضرورة وجود جهاز مخطط للحوزة العلمية، قائلاً: «الموضوع الأول هو موضوع البرمجة والتخطيط في الحوزات..، فالحوزة العلمية بصفتها مكوّنة من مجموعة كبيرة من العلماء العظام والباحثين والكبار في العلوم المختلفة من فقه وتفسير وأصول وكلام وفلسفة وسواها من العلوم الحوزوية، فإنه لا بد لها من جهاز للتخطيط يمارس عمله بنشاط مستمر»⁽¹⁾.

كما يؤكّد سماحته على ضرورة تحديد الأهداف في كل عمل تخطيطي: «إنّ إنشاء المنظّمات دون رسم أهداف واضحة وتحديدّها بدقة، أمّ فقدان خطة دقيقة تكفل الوصول إليها، سوف يؤدّي إلى إفشال المؤسّسة في عملية الإنتاج وزوالها أخيراً، وفي حال عدم الزوال نهائيّاً فإنّها ستظل شكلية»⁽²⁾.

ب- استمرارية التخطيط: إنّنا نعيش في بيئة متغيّرة ومتحركة باستمرار؛ لذلك لا يمكن أن نعتمد خطة وبرنامجاً واحداً لكل الظروف والأحوال، بل ينبغي الاستعداد التام للتخطيط في كل الأوقات، نظراً لما يطرأ من مستجدّات، ولما يحصل من انحرافات في الأداء وتتطلّب تعديلاً في الخطط الموضوعية، والاستزادة المستمرة من التطوّر الحاصل في مجال العملية التعليمية: «.. لابد من وضع برنامج يتصف أولاً بالدقة والإتقان، وثانياً: أن يطاله التطوير باستمرار.. بمعنى أنّه إذا تمّ وضع برنامج في هذا العام، فلا بد أن تتم مراجعته في العام المقبل، لا أن يصار إلى هدمه وإلغائه، بل ليحجر ما فيه من نقص، كما أنّه لا بد من وجود جهاز للرقابة على وضع البرامج، مهمّته المراقبة الدقيقة والمستمرة الميدانية للبرامج، لمعرفة مواضع الخلل، ومدى تناسبه مع قدرات الطلاب لجهة التقبّل والاستيعاب..»⁽³⁾.

(1) من خطاب بمناسبة بدأ العام الدراسي في الحوزات العلمية في 11/2/1421هـ - طهران.

(2) من خطاب ألقى بحضور ممثلي وطلاب الحوزة العلمية في قم تاريخ 1368/9/7هـ.ش.

(3) من كلام ألقى في لقاء طلاب ومدربي المدارس الدينية، تاريخ 1363/6/37 هـ.ش.

ج- ملائمة التخطيط للبيئة المحيطة: إن وضع البرامج من أجل الحوزة كما في غيرها لا يمكن أن يكون منقطعاً عن بيئتها، حيث إن البيئة وتداعياتها تلعب دوراً كبيراً في تأييد أو تحجيم الفكر، خصوصاً إذا كان تطويراً، من هنا، وقبل أن يصار إلى طرح برنامج متطور، فإنه ينبغي العمل على إيجاد أجواء ملائمة للبرنامج حتى يمكن طرحه وإجراؤه في تلك البيئة: "ينبغي العمل من أجل إيجاد أجواء منفتحة لتنمية المواهب الفكرية، ولا بد من العمل في هذا المجال في الحوزة؛ لأنه يؤدي إلى إحيائها.." (1).

د- أهداف الدين في عملية التخطيط: هذه الخصوصية تتطلب من الحوزويين أن ينطلقوا في تقديرهم للأمر وفي تخطيطهم للعمل التعليمي والتربوي من هذا الاعتبار، وأن: "الطرح الإسلامي مبتنٍ على أساس أن الدين هو رسالة الحياة، والطريق الوحيد للخلاص من المشاكل والمصاعب التي حلت بالعالم، والتي ستحل فيما بعد، وهو القادر على إعطاء الحلول الناجعة للمعضلات الاجتماعية التي تعاني منها المجتمعات البشرية" (2).

هـ- الاستفادة من الخبرات العلمية والمنهجية: إن الحوزة العلمية مؤسسة تعليمية وتربوية، مثلها مثل باقي المؤسسات المماثلة، لا يمكن أن تكون بعيدة عن التطورات العلمية والمنهجية والمهاراتية في العالم، بل ينبغي لها أن تستفيد من تلك الخبرات بشكل لائق، وعليه " فلا بد للمتولين لتنظيم شؤون الحوزة أن يهيئوا الأرضية اللازمة لجعل الطلاب على صلة وثيقة بمجريات الأمور في العالم، ولا ينبغي أن ينزوي الطلبة بعيداً عن التطورات، والوقائع، والمواضيع العلمية، والنظريات

(1) من خطاب ألقى في 1374/9/14 هـ.ش. عند لقاء فضلاء حوزة قم العلمية.
(2) من خطاب ألقى الإمام الخامني في بداية العام الدراسي في الحوزة العلمية في 9 ربيع الثاني 1416 هـ.

والاكتشافات الجديدة في مجال الطبيعة والعلوم على الأخص، حيث إن معرفة الموضوعات ركن مهم في إصدار الحكم والفتوى"⁽¹⁾.

"فلا بد لنا من النظر إلى العالم حولنا وما تحتاج إليه البشرية، ولا بد لنا من الوقوف على ما يستجد من أفكار ونظريات وآراء وقضايا في كل يوم وآخر، بل بين الفينة والأخرى، مما يتعلّق بشؤون الحوزات العلميّة، ليس ما يتعلّق بالحوزات العلميّة بشكل مباشر، بل ما يتعلّق بالأمور ذات الصلة المباشرة بالحوزات العلميّة بشكل خاص"⁽²⁾.

ومراعاة التحديد الكمي والرقمي للحاجات: ينبغي لكل المعنيين في شؤون الحوزة العلميّة أن يتعاطوا مع مسائل الحوزة بواقعية تستند إلى دراسات أرقام علمية، لا أن يستندوا إلى تصورات ذهنية وخيالية بعيدة عن الواقع ومتطلباته. وإن التحديدات الكميّة والرقمية المعتمدة اليوم في التخطيط والبرمجة ينبغي أن تأخذ طريقها إلى الحوزة، كي يصار إلى وضع برامج مدروسة ودقيقة، وقد أشار الإمام الخامنّي إلى هذا بقوله: "من جملة الأمور التي تحتاج إليها الحوزة العلميّة هو نظام التعليم والتعلّم، بحيث لا تضيع الأوقات، وفي عصرنا لا يمكن أن نجيز أن تهدر ساعة واحدة من عمر شاب مؤمن، قد أعدّ نفسه لبذل الجهد والعمل في سبيل الدين"⁽³⁾. وعليه فلا يمكن التهاون بأمر عملية التعليم والتعلّم، فينبغي: "أن يملأ هذا الخلل (عدم الانتظام الدقيق) من خلال وضع برامج تتّصف أولاً بالدقّة والإتقان، وثانياً: بالتطوّر باستمرار."⁽⁴⁾.

ولا يكفي أن نراجع البرامج التي يتم وضعها باستمرار، بل ينبغي أن تتم تلك المراجعة من خلال تقدير دقيق للحاجات الواقعية والفعلية للمجتمع:

(1) من خطاب ألقى الإمام الخامنّي في بداية العام الدراسي في الحوزة العلميّة في 9 ربيع الثاني 1416هـ..

(2) م.ن..

(3) من خطاب ألقى في لقاء طلاب وفضلاء الحوزة العلميّة في قم، تاريخ 1369/11/14هـ.ش.

(4) من خطاب ألقى في لقاء طلاب ومدري المدارس الدينية، تاريخ 1363/6/27هـ.ش.

"ينبغي أن نخطط للمستقبل، فإذا قدرنا أن الدولة الإسلامية تحتاج إلى عدد معين من القضاة في الثلاثين سنة القادمة، فعلى الحوزة أن تهض لتأمين هذا العدد، والتخطيط لتربية عدد من المجتهدين للقيام بهذه الوظيفة"⁽¹⁾.

ز. تقدير الحاجات الواقعية (معرفة المشكل): لا يمكن أن نصل إلى حلول ملائمة لمشاكل الحوزة إلا بعد تحديد دقيق للمشكلات والمسائل التي تعاني منها الحوزة العلمية، ومن ثم السعي نحو إعطاء الحلول المناسبة لتلك المشاكل، فمن لا يؤمن بوجود المشكلة لا يمكن أن يتحرك للبحث عن الحل، يقول الإمام الخامنئي: "لا بدّ من الإذعان بوجود المشكل، فلا يأتي أحد ويقول، ما هذا الكلام؟، أليس "الشيخ الأنصاري" و"الميرزا النائيني" و"صاحب الكفاية" و"الإمام الخميني" وباقي العظام تخرّجوا من هذه الحوزات، وأنتم تطرحون أموراً جديدة، فإن لم يدعن هؤلاء بالمشكل، فلا يأتي الحل، فيجب الاعتراف بأنّ هذا المريض مريض حقاً، وأنّ هذا الكائن الحيّ يعاني من الألم، فإن لم يدركوا الألم ولم يعالجوه، فلن يشفى من مرضه"⁽²⁾.

ح. تقديم الأولويات والحاجات الملحة: إن الحوزة العلمية، نتيجة تراكم المشكلات عبر الزمن، لا تستطيع أن تواجه تلك المشكلات في فترة زمنية واحدة كما لا تستطيع أن تقدّم حلولاً ومعالجات ناجعة في آن واحد، من هنا، لا بد من العمل المرحلي الذي يؤخذ فيه بالحسبان التدرّج في المعالجة. ثم إنّ عملية التدرّج لا بد أن تستند إلى قاعدة عمل واضحة تقدّم فيها الأولويات الفورية والحاجات الملحة على غيرها. "إنّ الإدارة في الحوزة العلمية تواجه مسائل ومشاكل عديدة، كما أنها سوف تواجه مستجدّات متوقّعة وغير متوقّعة، وينبغي لها أن تحدّد المهمة الأولى لها تحديد الأولويات والحاجات الملحة"⁽³⁾.

(1) من خطاب ألقى في لقاء ممثلي الطلاب والفضلاء في حوزة قم العلمية، تاريخ 1368/9/7 هـ.ش.
(2) من خطاب ألقى في لقاء فضلاء وطلاب مميزين من الحوزة العلمية في قم، تاريخ 1374/9/14 هـ.ش.
(3) من نداء إلى جامعة المدرسين في الحوزة العلمية في قم بمناسبة إنشاء المجلس الأعلى للحوزة، 1371/8/24 هـ.ش.

خاتمة:

- تمثل التربية والتعليم والتزكية محور حركة الأنبياء ﷺ والرسول والمصلحين في التاريخ الإنساني بشكل عام، والتاريخ الإسلامي بشكل خاص، لما لهذه العناصر من دور في تربية المجتمع الإنساني، وبناء حضارته ورفيّه، وإعطائه القيمة على أساس ما يملك من علم وفكر.

- لا بد من التوقف مع موقع الحوزة العلميّة ودورها ضمن هذه المنظومة التربويّة والتعليمية، فإننا نعتقد بأن الحوزة ينبغي أن تمثل المرجعيّة التربويّة الأساس، لناحية صياغة الرؤى التربويّة، ووضع مرتكزات العملية التعليمية ومكوّناتها المنهجية، فضلاً عن المناهج والبرامج الدراسية المختلفة.

- وهذا ما يفرض على الحوزة أن ترفد الفكر والمجتمع الإسلاميّن بمنظومة من المناهج والبرامج والرؤى التي تثري العملية التربويّة، وتتسم بالموضوعية والواقعية والتطلّع الطموح؛ لأن العملية التربويّة والتعليمية التي تكون أسيرة لمنطق التقليد وتابعة في مناهجها وبرامجها لمجموعة من الثوابت، وقد ألبست هالة التقديس؛ وجعلت كأصول تقاس صوابية الأمور عليها، سيؤدّي حتماً إلى فجوة واسعة، بين الواقع والمرتجى.

- لا بد من العمل الدؤوب لتكريس مبدأ التوافق على مستوى معيّن من التطوير والتحسين والتنمية والترشيد، ولاسيما ما يتعلّق بالجوانب المنهجية والتربويّة والتعليمية، والوصول إلى قناعة تامّة تركز على مبدأ إعادة الدور الريادي للحوزة العلميّة في ساحتي التربية والتعليم وبناء المجتمع وقيادته، والتصدي لمختلف ألوان الإشكاليات التي تواجه الفكر الديني.

- لا يمكن التعامل التربويّ السليم والفعال مع التحديات المعرفية والفكرية والثقافية دون توفر العناصر الكاملة المكوّنة للعملية التعليمية والتربويّة بشقيها المنهجي والتربويّ - التعليمي، والتي تحتاج حكماً

إلى التخطيط التعليمي- التعليمي - التربوي، ووضع المناهج وإصلاحها وتطويرها وفق أسس علمية تراعي التطور المعرفي ومتطلبات البيئة التربوية، وتستند الى رسالة الحوزة العلمية وأهدافها ومنطلقاتها.

- انسجاماً مع المسؤولية الكبيرة الملقاة على عاتق الحوزة يجب على الحوزة أن تنشئ مؤسسات ومراكز للتخطيط والمناهج الدراسية للحوزة العلمية، وكل ما يرتبط بها من برامج، ومن ثم العمل من أجل وضع خطط ومناهج تتلاءم والأسس والمبادئ التي يستند إليها مشروع الحوزة العلمية، ويحفظ الأصالة والعمق دون إهمال لضرورة مواكبة العصر؛ مما يساهم في حفظ تراثنا الديني، ويرشد علومنا ويدعمها بعناصر القوة التي تؤهلها لمواكبة مقتضيات الزمان والمكان بعمق وأصالة.